فكاهات

رواية

الفوز بعد اليأس [1]

كان في ضواحي مدينة كلرمون من فرنسا حديقة غنآء قام في وسطها قصر مشيد الاركان حسن البنيان يدل على العظمة والترف يقيم فيهِ رجلٌ من الاشراف يقال لهُ الكنت جيرلد وزوجتهُ وابنةٌ لهما صغيرة يقال لها ماري . وكان الكنت جيرلد من اصحاب الثروة الواسعة فلم يذخر وسعاً في جعل القصر والحديقة فردوساً بهيًّا فزيَّن القصر بأنفس الرسوم وافخر الرياش ولم يدع صنفاً من اصناف الازهار والرياحين النادرة الا جعلهُ في الحديقة فضلاً عمَّا ربَّى عندهُ من الحيوانات الداجنة والاطيار الاليفة . وكان في أُخريات الحديقة بيت صغير للكنت ايضاً وهبهُ لارملةٍ مسكينة هي غسَّالة لبيت الكنت كانت والدتها قد خدمت بيت والدهِ من قبلهِ ورزق الله تلك المرأة ولداً ذكراً ثم توفي زوجها فوهبها الكنت البيت المذكور لتقيم فيهِ مع ولدها الصغير ادوار ولهُ من العمر ثلاث سنوات . وكانت والدة ادوار تقضي ايامها في خدمة بيت الكنت وتُصحب معها ادوار فيقضي ساعاتهِ في ملاعبة ابنة الكنت ماري والتسلي بلعبها

---

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

ولم تزل الحالة على ما ذكرنا الى ان ترعرعت الفتاة وحان ارسالها الى المدرسة الا ان والديها لم يكونا ليصبرا على فراقها فاحضرا لها استاذاً ماهراً يدرّسها في البيت وفوضا اليهِ امر تربيتها وتثقيفها . وكان ادوار يحضر درسها غالباً فكان يحفظ كل ما يسمعهُ في اثناء التعليم وربما اجاب عن بعض الاسئلة التي كان يلقيها الاستاذ على ماري ولما رأى الاستاذ ما عندهُ من قوة الذكاء وسرعة الحفظ أُعجب بهِ غاية الاعجاب وذكر ذلك مرةً للكنت فقال لهُ لا بأس ان تشركهُ في الدرس مع ابنتي حرصاً على مثل هذا الذكاء ان يذهب سدًى ومذ ذاك اخذ يدرّسهما معاً فوجد من كليهما ما سرّ بهِ غاية السرور

ولما طال الامر على ذلك وتمكنت الالفة بين الصغيرين نمت في قلبيهما جراثيم الحب الطاهر وكانا اذا فرغا من الدرس يخرجان الى الحديقة الفسيحة يتنزهان في ارجائها وشب الاثنان على ذوقٍ واحد ورأيٍ واحد واخلاقٍ واحدة فكانت عواطفهما واهواؤهما ونفساهما واحدةً في جسمين

ولما بلغ ادوار الثالثة عشرة من عمرهِ شعر في فؤادهِ بحركةٍ خفية لم يدرِ معناها حتى كان في ذات يومٍ جالساً بالقرب من ماري في الحديقة فكانت تكلمهُ وهو مشرَّد الافكار يتأمل في صباحة وجهها وتسلسل شعرها وجمال مبسمها ولطافة تركيبها فعلم ان تلك الحركة التي شعر بها في فؤادهِ انما كانت ايدياً معنوية تمتدّ من جانب صدره تلتمس الامساك بذلك الملك الطاهر وقد اصبح قبلة امانيّهِ ووجهة آمالهِ . وجعل ادوار يراقب ماري فرأى ميلها اليهِ لا يقل عن ميلهِ اليها فاشتكى لها ما بهِ واجابتهُ بالمثل فتعاهد الاثنان

ان يحافظا على ما بينهما من الوداد ولا يخون احدهما الآخر الى الممات

ورأى الكنت جيرلد انهُ لا غنى عن ارسال ابنتهِ الى مدرسة عالية لاستيفآء الدروس التكميلية فارسلها الى احدى المدارس الكلية وارسل ادوار على نفقتهِ ايضاً الى مدرسةٍ اخرى وكان قد اعجبهُ تقدم الفتى وتوسم فيهِ خيراً . ولم يعلم الحبيبان بالفراق الا قبل حدوثهِ بدقائق قليلة فودع احدهما الآخر وداعاً مختصراً ختامهُ بتجديد عهد الثبات على الحب

وبعد ان مضت عليهما اربع سنوات عاد كلٌّ منهما الى مقرّهِ وهما في غاية الغبطة والسرور بعود الاجتماع وكانت الساعة الاولى التي قابل فيها ادوار ماري من اسعد ايام حياتهِ ولكنهُ ما عتّم ان ظهر لهُ الامر على خلاف ما كان يعد بهِ نفسهُ لانهُ لما بلغ مبالغ الشبان لم يعد من اللائق ان يرافق ماري في نتزهها وباعتبار كونهِ ابن غسالة لم يعد يمكنهُ ان يذهب يومياً لزيارة بيت الكونت لنزول مقامهِ عن رتبتهم فصبر على بلواهُ واقتنع بالدقائق القليلة التي كان يصادفها فيها عن بعد . ولم يزل كذلك حتى تعاظم الحب في صدرهِ ولم يعد في امكانهِ الصبر فجلس ليلةً امام والدتهِ واخبرها بما يقاسيهِ من الوجد والهيام وتوسل اليها ان تذهب الى بيت الكنت وتطلب ماري عروساً لهُ . فضحكت والدتهُ منهُ وقالت لهُ اجدّاً تتكلم . قال ولمَ لا . قالت اياك يا ادوار ان يتخالج في صدرك مثل هذا الفكر واين نحن من مقام الكنت حتى نطلب مصاهرتهُ وبأي لسان اطلب ماري ان تكون زوجةً لك وهي اذا تزوّجت لا تأخذ الا اميراً عظيماً . وكان كلامها يزيد ادوار اصراراً والحاحاً واخيراً انتصب امامها بهيئة وحشية واخرج من جيبهِ مسدساً وقال

يجب يا اماه ان تذهبي الى الكنت جيرلد صباح غدٍ وتطلبي ماري عروساً لي وسأنتظركِ عند سلم القصر فاذا خرجتِ يجب ان تعلميني حالاً بما يكون فاذا علمت بقبولهم سُررت وسررتكِ واما اذا علمت انكِ استولى عليك الجبن ولم تعرضي طلبي عليهم او كان جوابهم سلباً فاعلمي ان رصاصة واحدة من هذا المسدس تخمد انفاسي وتريحني من حياة لا اجد لي فيها لذّةً ولا سروراً . ان هذا ما صممت عليهِ ولن احول عنهُ فلا تجتهدي باقناعي وموعدنا صباح الغد . ولما قال هذا دخل الى غرفتهِ واغلق الباب . اما والدتهُ فلبثت ذلك الليل لا تهدأ افكارها ولا يغمض جفناها فقضت ليلتها في البكآء اسفاً على ولدها لانها كانت على يقين من ان طلبتهُ لا يمكن ان تجاب وجعلت تبتهل الى الله ان يغير افكارهُ

وما اشرقت شمس الصباح حتى استيقظ ادوار فايقظ والدتهُ وهي متناومة والحّ عليها فلبست وسارت الى القصر وهو يتبعها عن بعد حتى صعدت السلم وجعل هو ينتظرها والمسدس في يدهِ كما قال في الليلة السابقة . اما والدتهُ فدخلت القصر وهي ترتجف خوفاً و يأساً ورآها الكنت في حالة الارتباك فجعل يسألها عماً بها ولم يمكنها الكلام فتساقطت دموعها . فاحاط بها الكنت وزوجتهُ والزماها ان تخبرهما بما اصابها فقصّت عليهما الامر وهي تبكي وتنتحب . فضحك الكنت قليلاً ثم فكّر طويلاً وقال لها انني اميل الى ادوار واحبهُ كولدي فقد آنست فيهِ جميع الصفات التي احبها وانا اود ان يكون عروساً لماري لاني لا يهمني ان اجد لها زوجاً غنياً فهي ليست في حاجةٍ الى ذلك . لكن قبل ان اعدك وعداً باتاً يجب ان نعرض الامر على

ماري فان كانت هي تحبهُ ايضاً وتوافق على طلبهِ فليس عندي من ذلك مانع . ثم التفت الى زوجتهِ وقال وما رأيكِ يا عزيزتي . قالت انا على ما ترى ايها العزيز وكل ما وصفت بهِ ادوار فانا اعتقدهُ تمام الاعتقاد . فاستدعى الكنت ماري وقصَّ عليها الحديث فاجابهُ من احمرار وجنتيها وخفقان قلبها ما دلهُ صريحاً على ما في نفسها ثم جثت امام والديها وقالت أجل اني احب ادوار كثيراً ولكني احب رضا كما اكثر فاذا لم يكن عندكما مانعٌ من ذلك فليس احب اليَّ من ادوار بل لن اميل الى سواهُ . ولا تسل عن سرور الارملة المسكينة بما جرى حتى اوشك ان يغمى عليها من شدة السرور . فقال لها الكنت اذهبي اذاً وبشري ادوار وارسليهِ الى هنا فانا اودّ ان اقابلهُ . فما صدقت المسكينة ان سمعت هذا الكلام حتى اندفعت تقبّل يدي الكنت والكنتة وخرجت مسرعة لتبشر ولدها وهي لا تكاد تصدق ما جرى . ولما ابصرها ادوار من بعيد قرأ في وجهها علامات الفوز فاودع المسدس في جيبهِ وقابلها باسماً فاخبرتهُ بما كان فاسرع الى داخل القصر وحيّا بالاحترام والوقار وجعل الكنت يجاذبهُ اطراف الحديث ويعجب بحسن كلامهِ ودماثة اخلاقهِ وكمال آدابهِ ثم صرَّح لهُ برضاهُ عن خطبتهِ لماري . وكان ادوار قد استحضر خاتمين على كلٍّ منهما اسم احدهما فألبس ماري خاتماً ولبس الثاني ثم جثوا امام والديها فاقسما على الامانة والاخلاص وباركهما الوالدان . وبعد ذلك استدعى الكنت ادوار الى غرفتهِ وقال لهُ لست انكر ايها العزيز ان لديَّ من الاموال ما يضمن لك ولماري عيشة هنآء وسرور الى ما شآء الله ولكن الانسان لا يدري ما خبأ لهُ القدر فاذا قُدّر

لا سمح الله ان عبثت باموالي يد الدهر تقعان في شدةٍ وضيق وعليهِ وبما انكما لا تزالان صغيري السن ولا بأس من انتظاركما مدةً بعد فانا ارى ان اعطيك مبلغاً من النقود فتسافر الى حيث تشآء وتتاجر بهِ مدة سنةٍ ثم تعود وتربني ما تكون قد فعلت وبهذا تكون قد ربحت لك مالاً بكدك وتعبك وتعلمت التجارة لتستعين بها اذا دعتك اليها الحاجة . وكان ادوار بعد خطبتهِ لماري لا يقدّر حساباً لشيء فقبل مشورة الكنت في الحال واستعد للسفر ولما جهز لوازمهُ اعطاهُ حموهُ الفين من الدنانير فودع الجميع وسافر على بركات الله . وقصد ادوار مدينة بردو فتاجر فيها بالخمور وما مضت عليهِ ستة اشهر حتى تضاعف رأس مالهِ ثم جدد اشغالهُ الى نهاية السنة فتضاعف ايضاً . ولما رأى تزايد ربحهِ عزم ان يوطد مستقبلاً لنفسهِ بيدهِ ولا يعتمد على ثروة حميهِ فكتب اليهِ يقول انني مرجعٌ لك ألفي الليرة التي استلفتنيها فقد رزقني الله اضعافها واني اود البقآء سنة اخرى لاني آسف على ضياع هذه الارباح التي امامي . ثم كتب لخطيبتهِ ماري ووالدتهِ بالواقع وصمم على البقآء

وكان في ذات يوم ان زار الكنت في قصرهِ المركيز لامورلين وهو اذ ذاك وزير الخارجية وكان المركيز ارملاً قبيح الصورة قصير القامة كبير الانف صغير العينين ولهُ شدقٌ يمتد الى قرب اذنيهِ تحيط بهِ لحيةٌ بيضآء مسترسلة ولم يكن فيهِ من الحسنات سوى انهُ يملك اربعة ملايين من الليرات ولهُ اليد الطولى والكلمة النافذة في الحكومة . قلنا انهُ زار الكنت لقضآء بضعة ايام عندهُ فاكرم الكنت وفادتهُ وجعل يجهد نفسهُ في مسرّتهِ ورأى المركيز ماري فافتتن بجمالها واحبها وفي نفس الليلة كلم اباها في شأنها

ووعدهُ ان هو ازوجهُ منها ان يملأ صدرهُ بأوسمة الشرف ويجعلهُ مشيراً في المملكة . وخطر للكنت لأول وهلة ان يخبر المركيز بخطبة ماري ولكن حب الرفعة وخوف العار ان هو اخبرهُ انها مخطوبة لابن خادمتهِ حملاهُ على ان يكتم الامر وبهر نور الوسامات نظرهُ فوعد المركيز بابنتهِ . ولما علمت ماري ووالدتها بذلك قامت قيامتهما فأعولتا وبكتا وما كانت دموعهما وتوسلاتهما الا لتزيد حنق الوالد وشراستهُ حتى تهدد ابنتهُ بالقتل ان خالفتهُ . وفي المسآء اجبرها على الجلوس بجانب المركيز ومحادثتهِ فكانت كلما نظرت اليهِ وتصورت جمال ادوار تسود الدنيا في عينيها . ولحظ المركيز انقباضها منهُ فسأل والدها فقال لهُ انها مستحيية لانها لم تعتد بعدُ محادثة الرجال . وبعد ان صرف المركيز بضعة ايام برح القصر عائداً الى باريز وقد وعد ان يعود بعد اشهر قليلة للاقتران بماري . ثم اخذ يزفّ الى الكنت الوسام بعد الآخر ويكثر من الهدايا الثمينة والتحف للكنتة ولماري غير ان هذه ما كانت لتعبأ بهذه الهدايا وهي تفكر في كيف تتخلص من هذه الورطة وتطلب الموت ليريحها من الاقتران بالمركيز . كل ذلك وادوار لا يعلم بشيء مما جرى لانهُ لم يجسر احد ان يخبرهُ

ولما مضت الاشهر التي عينها المركيز قدم الى كلرمون مسآء ذات يوم وطلب ان يقترن بماري في الغد . ولما علمت ماري بذلك اصابتها حمّى شديدة فكانت لا تعي شيئاً ولما حان وقت الاكليل اقتادها والدها بيدها الى امام المذبح الى جانب المركيز فلم تفق الا والكاهن يسألها هل تقبل المركيز زوجاً لها . وتحققت اذ ذاك موقفها فصاحت كلا كلا لا اريدهُ بعلاً لي

ثم ارتعشت وسقطت على الارض فاذا هي جثةٌ باردة . فلما رأى الحضور ذلك اصابتهم دهشة شديدة وجعلوا يمطرون لعناتهم على قلب ذلك الوالد القاسي الذي اعمى بصيرتهُ حبّ الذهب وفهم المركيز الامر فركب عربتهُ توًّا عائداً الى باريس وهو يلعن الكنت . اما جثة ماري فبقيت في الكنيسة بلباس العرس حيث اجتمع حولها والدتها ووالدها وبعض الاصدقآء يبكونها ويتأسفون على شبابها . وقبيل المسآء حملت الجثة الى المدفن فواروها في التراب ثم انصرف القوم عن قبرها وهم يستمطرون لها الرحمة بعد ما سقوها وابل الدموع

ولما خيم الظلام وساد السكون وقد ظهر القمر يبعث اشعتهُ الضعيفة على تلك البقعة اذا بشخص قد تسلل بين الاشجار الكثيفة وجعل يسير متمهلاً ويصغي بانتباه ولما تحقق خلوّ المكان اسرع الى اللحد الحديث وجثا مصلياً ثم نهض وجعل يحفر التراب بيديهِ الى ان بان النعش ففتحهُ ووقع نور القمر على وجه الميتة فوقف الشخص يتأمل فيها . ثم اندفع من صدرهِ انين عميق وانطلق لسانهُ فقال يعزُّ عليَّ ان اراكِ ميتةً بعد ما كنت احاذر عليكِ محاذرتي على روحي وكانكِ اردتِ تخفيف حزني فلم تموتي حتى حنثتِ بيمينكِ وجرَّعتني مرارة الخيانة قبل ان تجرّعيني مرارة فقدكِ . اني فتحت لحدكِ ليس لاودعكِ فانكِ لا تستحقين الوداع ولكن لآخذ من يدكِ خاتماً عليهِ اسمي فاني لا اسمح ان تلبسيهِ وانتِ قد حنثتِ بيمينكِ التي جعلتهِ شاهداً عليها

وكان المتكلم كما عرف القارئ هو ادوار فانهُ بعد ان اتم تجارتهُ وربح الارباح العظيمة فوَّض اشغال محلهِ الى وكيل وعاد الى كارمون ورأى ان لا يخبر بقدومهِ مفضلاً الوصول بغتةً فلما بلغ كارمون رأى الجمع يدخلون

المقبرة فسأل بعض المارة فاعلموهُ بزواج ماري وموتهـا فتبعهم الى المدفن واختفى ريثما خرج الجميع ففعل ما ذكرنا ولما اتمَّ كلامهُ انحنى فاخذ يد الجثة اليمنى ليخرج منها خاتمهُ فتعذر عليهِ اخراجهُ وجعل يفكر هل يكسر الخاتم او يقطع الاصبع ثم قال لا ان خاتمي لا ينفصل فهو قطعة واحدة اما انتِ فقد اشركتِ في الحب ثم اخرج من جيبهِ سكيناً حادًّا وبدأ يحزّ الاصبع واذا بقطرات دم تسيل من الجرح فارتعش ادوار ولبث مبهوتاً كمن مسهُ الجنون وبعد هنيهةٍ عاد اليهِ رشدهُ فامسك الفتاة واخرجها من النعش فالقاها على الارض وكان الدم يزداد خروجاً من اصبعها ثم رأى صدرها ينخفض ويرتفع فأخذ يستعمل ما بوسعهِ لايقاظها حتى افاقت قليلاً فقالت أماه أين أنا ٠ دعيني اموت ولا أرى وجه المركيز ثم عادت الى غيبوبتها٠ فاحتال ادوار على ان فتح باب المقبرة ثم حملها بين يديهِ حتى خرج بها الى الخـارج وأغلق الباب ثم اكترى عربةً ونقلها الى نزل قريب واستدعى طبيباً لمعالجتهـا فلما فحصها الطبيب وجد ان ما أصابها نوبة عصبية شديدة على اثر انفعال عظيم فأخذ يعالجها حتى افاقت تماماً فكان اوّل كلمة قالتها آه ادوار

ولم تدرِ ماري محل وجودها ولا ما اوصلها الى ذلك المكان فستر عنها ادوار الامر في تلك الحال مخافة ان يؤثر الرعب فيها اذا تصوّرت ما كانت فيهِ ثم اخذ يسألها عما كان في مدة غيبتهِ فأخبرتهُ بكل ما حدث ولما تعافت احضر كاهناً الى النزل فعقد لهُ عليها وأصبحت ماري زوجةً شرعية لادوار

كل ذلك ووالدا ماري في أشدّ الحزن على فقدها ووالدة ادوار تفكر ماذا يحدث بولدها متى رجع او بلغهُ الامر ٠ وبعد بضعة ايام دخل ادوار على

والدتهِ فعجبت من قدومهِ بدون سابق علم وبعد السلام قال يجب ان اذهب توًّا الى بيت حمي وأرى ماري . فجعلت والدتهُ تقنعهُ ان لا يفعل في ذلك اليوم فأصرَّ وذهب وأصحب ماري معهُ ولما بلغ القصر دخل وحدهُ وبقيت ماري خارجاً في العربة . ولما دخل رأى الكنت وزوجتهُ جالسين يبكيان خفيًا وسألهما عن سبب حزنهما وأين ماري . فجثا الكنت امامهُ وقال عفواً يا عزيزي ادوار اصفح لي فقد قتلت ماري بيدي ثم اخذ يقص عليهِ الواقعة ويطلب منهُ الصفح . اما ادوار فقهقه ضاحكاً وقال ذلك ما كنت اظنهُ بكما فقد علمت ان الغنى لا يكفي لجعل الانسان صادقاً في وعده ولذلك فاني قد تزوَّجتُ وستصل زوجتي عن قريب وتريانها وقد كفاني الله غدركما واما انتما فحسبكما جزاءً اغترارکما بالمركيز وخيانتكما لي مما سيعقبكما حزناً دائماً يتبعكما الى القبر . واذ ذاك فُتح الباب فدخلت فتاة على وجهها نقاب فاستقبلها ادوار ثم عرَّفهم بها انها زوجتهُ وبعد ما حيَّت جلست تجاه والدتها ولم ترفع نقابها وأخذ الجميع يتحدثون وأدوار يؤنب الكنت والكنتة على عملهما ولما شفى صدرهُ منهما اشار الى ماري فرفعت نقابها وحالما وقع نظر والدتها عليها صاحت صيحة عظيمة وسقطت مغشيًّا عليها واما الوالد فوقف مبهوتاً وقد جحظت عيناهُ ولم يدرِ أفي حلمٍ هو ام في يقظة

وبعد ذلك اطلعهما ادوار على ما حدث وشاع الخبر في المدينة فتعجب الجميع من هذا التدبير الرباني الذي لم يحرم ادوار حبيبتهُ فجددوا الافراح وعاش ادوار وماري مع بقية الأُسرة في اتمّ الخير واكمل السرور